النص الكامل



مغامرات شيرلوك هولمز

١٧

تأليف:
آرثر كونان دويل

سفينة «غْلوريا سْكوت»

الرسومات الأصلية



الأجيال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

بسم الله الرحمن الرحيم



ذكريات

شيرلوك هولمز

(٥)

سفينة «غلوريا سْكوت»

نُشرت للمرة الأولى في صحيفة «ستراند» الشهرية
في عدد نيسان (أبريل) ١٨٩٣

تأليف: آرثر كونان دويل
ترجمة: سالي أحمد حمدي
تحرير: رمزي رامز حسّون



الأجيال
للترجمة والنشر

الطبعة الأولى
٢٠٠٧

العنوان الإلكتروني للناشر
info@al-ajyal.com

موقعنا على الإنترنت
www.al-ajyal.com



آرثر كونان دويل

وُلد آرثر كونان دويل لأسرة متوسطة الحال في إدنبرة في إسكتلندا في الثاني والعشرين من أيار (مايو) عام ١٨٥٩، والتحق بكلية الطب فيها وعمره سبعة عشر عاماً. وكان من مدرّسيه في الكلية الجرّاحُ الشهير الدكتور جوزيف بِلْ، وهو الذي أوحى إليه بشخصية شيرلوك هولمز التي ابتكرها بعد ذلك.

في عام ١٨٨٢ حصل دويل على شهادة الطب من جامعة إدنبرة، وكان يحلم بأن يصبح جرّاحاً وخبيراً في التشخيص مثل الدكتور بل، ولكن قلة المال اضطرته إلى العمل طبيباً على سفينة لصيد الحيتان.

بعد ذلك مارس مهنته في منزل صغير استأجره في بعض ضواحي بورتْسماوث، ولكن عدد المرضى كان قليلاً فاتجه إلى الكتابة أملاً في الحصول على بعض الدخل الإضافي. وقد كتب بعضاً من قصص المغامرات لمجلاّت الفتيان، ولكن أجره عنها كان ضئيلاً، وفشلت روايته الأولى في العثور على ناشر.

وفي غمرة إحساسه باليأس فكّر في أساليب الدكتور بل في التشخيص وقرر أن يستخدمها في قصة يكون بطلها واحداً من رجال التحري؛ وهكذا وُلد شيرلوك هولمز في رواية «دراسة قرمزية» التي نشرها دويل سنة ١٨٨٧.

لقد ابتكر دويل شخصية تفيض بالحياة، حتى إن الجماهير رفضت أن تصدق أنها شخصية خيالية! وكان المؤلف يتلقى بانتظام خطابات موجَّهة إلى هولمز تطلب مساعدته في حل قضايا حقيقية، وبعض هذه القضايا أدى إلى كشف قدرة دويل نفسه.

كانت إحدى هذه الحوادث تتعلق برجل سحب كل أمواله من البنك وحجز غرفة في أحد فنادق لندن، ثم حضر حفلاً عاد بعده إلى فندقه حيث أبدل ملابسه ثم اختفى. وعجز رجال الشرطة عن اكتشاف مكانه، وخشيت أسرته أن يكون قد أصيب بسوء، لكن دويل حلّ المشكلة سريعاً إذ قال: "سوف تجدون رجلكم في

غلاسكو أو إدنبرة، وقد ذهب هناك بمحض إرادته. إن سحب كل أمواله من البنك يشير إلى الهروب المتعمَّد، والحفل الذي كان فيه ينتهي في الساعة الحادية عشرة، ولمّا كان قد أبدل ملابسه بعد عودته فلا بدّ أنه كان ينوي القيام برحلة، والقطارات السريعة المتجهة إلى إسكتلندا تغادر محطة كينغز كروس عند منتصف الليل". وقد عُثر على الرجل في إدنبرة فعلاً!

كان آرثر كونان دويل رياضياً متعدد المواهب، فقد مارس الملاكمة وكرة القدم والبولينغ والكريكت، وكان خطيباً مفوَّهاً ومحاضراً ناجحاً ومحاوراً بارعاً، وقد ذاعت آراؤه وأفكاره المتنوعة في الطب والعلم والأدب والسياسة والاجتماع.



وفي عام ١٩٠٠ تطوّع الدكتور دويل في حرب البُوير (في جنوب إفريقيا) وصار كبيراً للجرّاحين في واحد من المستشفيات الميدانية، وفي نهاية الحرب مُنح وسام الفروسية ولقب «سير» تقديراً لخدماته. وقد أصدر بعد عودته

إلى إنكلترا كتاباً مهماً عن هذه الحرب.

وتوفي السير آرثر كونان دويل في السابع من تموز (يوليو) عام ١٩٣٠ بعد أن بلغ الحادية والسبعين، بعد ثلاث سنوات من كتابة آخر قصصه عن شيرلوك هولمز وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً على أول ظهور علني لهذه الشخصية الخارقة.

* * *



شيرلوك هولمز وعالَمه

ربما كان شيرلوك هولمز أشهرَ الشخصيات الخيالية في التاريخ، بل إنه يكاد يفوق في شهرته كثيراً من مشاهير العالم الحقيقيين. وقد بلغ من شهرة هذه الشخصية أنها فاقت شهرةَ مبتكرها، آرثر كونان دويل.

استوحى دويل شخصية هولمز وصفاته من الدكتور جوزيف بِلْ الذي درّسه في كلية الطب. كان الدكتور بِلْ يتمتع بموهبة عظيمة في الملاحظة وأسلوب التفكير المنطقي، وكان يثير اهتمام تلاميذه بقدراته الاستنتاجية الفذة، فهو لم يكن ماهراً فقط في التعرف على علل المرضى، بل وفي معرفة شخصياتهم ومِهَنهم وتفصيلات خفية عنهم أيضاً. كان يقول لأحد المرضى مثلاً: "أنت ضابط سُرِّح من الجيش حديثاً، وقد عدتَ لتوّك من بربادوس، وأنت تعاني من داء الفيل". وبعد أن تسيطر الدهشة على المريض والطلبة

على السواء يشرح الدكتور بل الأمر قائلاً إن الرجل يبدو جندياً من هيئته، وعدم خلع قبعته عند دخوله الغرفة يدل على أنه ترك الخدمة حديثاً، وهو يملك مظاهر السلطة كتلك التي توجد لدى الضباط، وتدل بشرته التي لوّحتها الشمس والمرض الذي يشكو منه على أنه جاء من منطقة استوائية، وقد جاء من برباروس لأن هذا المرض بالذات منتشر هناك!

«وُلد» شيرلوك هولمز -في عالَمه الخيالي- سنة ١٨٥٤ وحصل على شهادة جامعية لم يحدّدها دويل، ثم احترف مهنة «محقق خاص» منذ نحو سنة ١٨٧٨،



وكان يقيم في شارع بيكر في العاصمة البريطانية لندن، ورقم البيت الذي يقيم فيه هو «٢٢١ب». وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هذا العنوان (٢٢١ب شارع بيكر) هو أشهر عنوان في العصر الحديث! وقد برع هولمز في كشف الجرائم وحل الألغاز الغامضة بفضل دقة ملاحظته وقدرته العظيمة على الاستنتاج والتحليل المنطقي، بالإضافة إلى غزارة معلوماته واطّلاعه الواسع على العلوم المختلفة.

أما الدكتور واطسون، صديق هولمز ومساعده الذي يرافقه في قصصه كلها، فلا يكاد يقل شهرة عن هولمز نفسه، وهو رَاوِية القصص الذي يقصّها علينا (كما فعل بعد ذلك هيستنغز في كثير من مغامرات بوارو). وهو طبيب وُلد نحو سنة ١٨٥٢ وتخرج طبيباً سنة ١٨٧٨، ثم انضم إلى الجيش سنة ١٨٨٠ وأمضى مدة خدمته في أفغانستان مع الجيش البريطاني، ثم عاد إلى بلده وتقاعد من الجيش بعدما أصيب في إحدى المعارك، وعندها تعرف إلى شيرلوك هولمز في مختبر الكيمياء بمستشفى ستامفورد في أوائل سنة ١٨٨١، ولم يفترق الصديقان بعد ذلك قط. وقد تزوج الدكتور واطسون في أواخر سنة ١٨٨٦، لكن دويل لم يشأ أن يعرّفنا إلى زوجته ولم يذكر لنا اسمها.

في قصة «المشكلة الأخيرة» التي نُشرت في نهاية

عام ١٨٩٣ «قتل» دويل بطله شيرلوك هولمز، لكنه واجه احتجاجاً عارماً من جماهير القراء فقرر إعادة إحياء هذه الشخصية الخيالية من جديد، فعاد هولمز إلى الظهور مرة أخرى في أواخر عام ١٩٠٣ ليستأنف حل القضايا الغامضة.

* * *



قصص شيرلوك هولمز

أول قصة نشرها دويل كانت في عام ١٨٧٩، وهي قصة قصيرة عنوانها «إفادة السيد جِفْسون»، أما أول رواية نشرها من بطولة شيرلوك هولمز فكانت «دراسة قرمزية»، وقد صدرت في بريطانيا عام ١٨٨٧ فلم يَكَد يُحِسّ بها أحد، لكنها حققت نجاحاً معتدلاً في الولايات المتحدة. وبعدها نشر رواية طويلة ثانية من بطولة شيرلوك هولمز، وهي رواية «علامة الأربعة» التي نُشرت عام ١٨٩٠ فوطّدت شخصيةَ هولمز في بريطانيا وأمريكا على السواء.

وفي السنة التالية (١٨٩١) بدأ نشر مجموعة «مغامرات شيرلوك هولمز» في حلقات شهرية في مجلة «ستراند»، بدءاً بقصة «فضيحة في بوهيميا» التي ظهرت في عدد تموز (يوليو)، فقوبلت هذه القصص بنجاح كبير غير مسبوق في تاريخ الصحافة البريطانية، ودخلت هذه الشخصية الخيالية التاريخَ من بابه الواسع، حيث صارت حديثَ المجتمع وشغلَ الناس في أنحاء البلاد.

وقد بلغ عدد قصص هذه السلسلة اثنتَي عشرة نُشر آخرها في عدد حزيران (يونيو) من عام ١٨٩٢. ثم ظهرت سلسلة «ذكريات شيرلوك هولمز» التي نُشرت في اثنتَي عشرة حلقة أيضاً صدر أولها في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢، ويبدو أن دويل بدأ يملّ عندئذ من كتابة قصص شيرلوك هولمز، ولذلك «قتله» في آخر قصة من هذه المجموعة في معركة مع البروفسور موريارتي الشرّير عند شلالات رايشِنْباخ في سويسرا! وقد نُشرت هذه القصة (وعنوانها «المشكلة الأخيرة») في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٩٣.

وثار جمهور دويل غضباً وانهالت عليه ألوف الخطابات تستنكر عمله وخسرت المجلة عشرين ألف اشتراك، ولكن دويل تمسّك بموقفه، فقد شعر بأن شيرلوك هولمز يحول بينه وبين أعمال أكثر أهمية. ثم وافق أخيراً بسبب الإلحاح الذي لم ينقطع على «بعث» شيرلوك هولمز، فأعاده إلى العمل في قصة «مغامرة المنزل الخالي» التي نُشرت في مجلة «ستراند» في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٠٣.

وعاد شيرلوك هولمز إلى الأضواء من جديد؛ فقد تبيّن أنه لم يُقتَل على الإطلاق، وفي تلك القصة (المنزل الخالي) شرح دويل كيف نجا هولمز من الموت بأعجوبة، ثم شقّ طريقه بعد ذلك إلى بلاد

التبّت لمساعدة اللاما الكبير، ثم عاد إلى لندن ليحقق في وفاة ابن أحد اللوردات بطريقة غامضة. وقد أثارت عودة شيرلوك هولمز في مجلة «ستراند» في بريطانيا ومجلة «كولِيرْز» في أمريكا حماسة بالغة في نفوس عشّاقه المخلصين وحققت للمجلتين مبيعات غير مسبوقة. واستمر نشر سلسلة «عودة شيرلوك هولمز» (التي بلغ عدد حلقاتها ثلاث عشرة حلقة) حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٤.

وكان دويل قد نشر قبل هذه السلسلة روايةَ شيرلوك هولمز الطويلة الثالثة «كلب عائلة باسكرفيل»، وقد استمر نشر حلقاتها من آب (أغسطس) ١٩٠١ إلى نيسان (أبريل) ١٩٠٢، وهي أشهر روايات شيرلوك هولمز على الإطلاق.

وبعدها صدرت سلسلة «الظهور الأخير» التي تضم سبع قصص نُشرت على حلقات متباعدة بين أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨ وكانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣، ثم الرواية الطويلة الرابعة «وادي الرعب» (١٩١٤/٩-١٩١٥/٥)، وهي أعظم روايات شيرلوك هولمز كما يقول النقّاد. وأخيراً سلسلة «قضايا شيرلوك هولمز» (١٩٢١/١٠-١٩٢٧/٤) التي نُشرت آخر حلقاتها بعد أربعين سنة تماماً من صدور أولى روايات شيرلوك هولمز.

ولم تقتصر مؤلفات آرثر كونان دويل على قصص وروايات شيرلوك هولمز، فقد ألّف كتباً كثيرة غيرها، منها روايات تاريخية ورومنسية ومسرحيات، بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب والدراسات الغير الروائية.

والحقيقة أنه كان كاتباً غزير الإنتاج، فقد بلغ ما تركه من المؤلفات نحو مئة وستين، منها ستّون من قصص وروايات شيرلوك هولمز، وخمس روايات من بطولة شخصية خيالية أخرى ابتكرها هي شخصية عالِم اسمه البروفيسور تشالنجر، وأشهر هذه الروايات هي «العالَم المفقود»، ونحو أربعين رواية من الروايات المتنوعة، بالإضافة إلى عشر مسرحيات، وأربعة دواوين شعرية، وأكثر من خمسين كتاباً وكتيّباً في الشؤون الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وكتاب ذكرياته الجميل الذي سمّاه «ذكريات ومغامرات».

❋ ❋ ❋



رسّام شيرلوك هولمز الأشهر

تعاقب على رسم شخصية شيرلوك هولمز عددٌ من الرسّامين، لكن أشهرهم وأعظمهم -بلا خلاف- كان الرسام الإنكليزي سدني باجيت الذي صاحَبَ روايات هولمز وقصصَه منذ ولادتها المبكرة، وهو الذي بَلْوَر صورة شيرلوك هولمز وطَبَعَها في عيون القراء على مدار السنين.

والغريب أن المجلة لم تسعَ ابتداءً خلف سدني باجيت بل خلف أخيه الأكبر ولتر الذي كان قد نجح في رسم رسومات قصّتَي «جزيرة الكنز» و«روبنسون كروزو»، لكن خطأً في الاتصالات تسبب في دعوة سدني، الأخ الأصغر، لرسم صور القصص الستّ

الأولى التي نشرتها مجلة «ستراند» في النصف الثاني من عام ١٨٩١، وعلى إثر النجاح الهائل الذي لقيَته هذه القصص مع رسوماتها التصق سدني باجيت بآرثر كونان دويل لتصبح رسومات هذا بنفس أهمية كتابة ذاك في عالم شيرلوك هولمز. وقد استمر سدني باجيت برسم الصور لقصص وروايات شيرلوك هولمز حتى وفاته عام ١٩٠٨، وبلغ عدد ما رسمه خلال هذه السنوات ٣٥٧ رسماً زيّنت ٣٨ قصة.

وحين توفي سدني استعانت مجلة «ستراند» برسّامين آخرين، فشارك في رسم السلسلة الجديدة «الظهور الأخير» كل من ولتر باجيت، الأخ الأكبر لسدني، وآرثر تويدل وجلبرت هاليدي وأليك بول وجوزف سمبسون. أما السلسلة الأخيرة -وهي «قضايا شيرلوك هولمز»- فقد رسمها ثلاثة من الرسامين هم أ. جلبرت وهاوارد إلكوك وفرانك وايلز.

هذا في نسخة هولمز البريطانية التي نشرتها مجلة «ستراند»، أما في أمريكا فقد استعانت مجلة «كوليِرْز» بعدد من الرسامين أشهرهم فردريك دورْ ستيل، ومنهم و هـ هايد وجوزف فريدرتش ورتشارد غوتشمت.

* * *

سفينة «غْلوريا سْكوت»

قال صديقي شيرلوك هولمز عندما جلسنا في أحد ليالي الشتاء بجوار المدفأة: عندي هنا -يا واطسون- بعض الأوراق التي أعتقد حقاً أنها تستحق أن تدرسها، وهي المستندات المتعلقة بالقضية الغريبة «سفينة غلوريا سكوت» ومعها الرسالة التي قضت على قاضي الصلح تريفور فمات رعباً عندما قرأها.

بعد ذلك أخرج هولمز من دُرجه لفّة أسطوانية صغيرة متّسخة وفك عنها الرباط ليعطيني رسالة صغيرة مكتوبة بخط مستعجل في نصف ورقة من الورق الرمادي، وكان مكتوباً فيها: «عملية توريد طيور اللعبة إلى مدينة لندن انتهت. نعتقد أن الحارس هدسون تلقى الأوامر وأنه كشف طلبات الورق وكشف كل طلبات الطيور وأي شيء. لتحافظ على الطيور اهرب بها فهذا طريق للنجاة».

توقفت عن قراءة الرسالة المبهمة ورفعت بصري فرأيت هولمز يضحك من التعبير المرتسم على وجهي. قال: تبدو محتاراً قليلاً.

- لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن لمثل هذه الرسالة أن تثير الرعب. إنها تبدو لي مثيرة للعجب أكثر من أي شيء آخر.

- ربما. وبالرغم من ذلك تبقى حقيقة أن قارئها، وهو رجل لطيف وكبير في السن ونشيط، قد خرّ صريعاً بسببها كما لو كانت سلاحاً فتّاكاً.

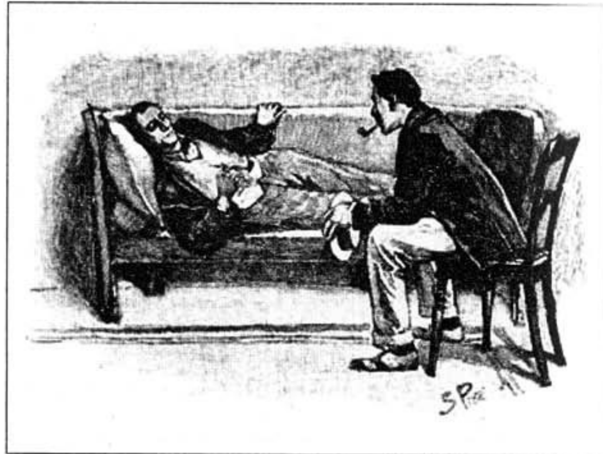
قلت: إنك تثير فضولي، ولكن لماذا قلت الآن إن هناك أسباباً خاصة تدفعني إلى دراسة هذه القضية بالذات؟

- لأنها كانت القضية الأولى التي عملت فيها على الإطلاق.

كنت دائماً أسعى لمعرفة السبب وراء اتجاه رفيقي إلى الأبحاث الإجرامية، وإن كنت لم أجده قط في مزاج ملائم للمصارحة من قبل. أما الآن فقد تمدد في كرسيه المريح ونشر المستندات على ركبتيه، ثم أشعل غليونه وجلس لبعض الوقت يدخن ويقلّب أوراقه.

سألني قائلاً: ألم يسبق لي أن حدّثتك عن فكتور تريفور قط؟ لقد كان صديقي الوحيد خلال

العامين اللذين قضيتهما في الكلية. فأنا لم أكن قط رجلاً اجتماعياً يا واطسون، بل كنت دائماً أفضّل الانزواء في غرفتي والعمل على إعداد أساليبي الخاصة في التفكير، ولذلك لم أختلط كثيراً بزملاء الدراسة. وبالرغم من ممارستي لبعض أنواع الرياضة كالملاكمة ومبارزة الهواة فلم يكن هناك أي قدر من التواصل بيننا، وساعد على ذلك أن مجال دراستي كان مختلفاً عن باقي الزملاء، وكان تريفور هو الرجل الوحيد الذي عرفته عندما عقر كلبُه كاحلي صباح أحد الأيام وأنا في طريقي إلى الكنيسة. وعلى الرغم من كونها طريقة غير شاعرية فقد كانت فعّالة لتكوين



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ — Sydney Paget 1893

صداقة وطيدة، فقد كنت ولمدة عشرة أيام غيرَ قادر على الوقوف واعتاد تريفور أن يأتي ويطمئن عليّ. في البداية كانت مجرد زيارات لدردشة قصيرة، ولكنها طالت بعد وقت قصير، وقبل نهاية المدة كنا قد أصبحنا أصدقاء مقرّبين حيث إنه كان رفيقاً مخلصاً وأصيلاً تملؤه العزيمة والطاقة. وكان على العكس مني في معظم النواحي إلا أنه كانت لدينا بعض المواضيع المشتركة، فكوّنّا رابطة اتحاد حين اكتشفت أنه -مثلي- بلا أصدقاء. وفي النهاية دعاني لزيارة منزل والده في قرية دونيثورب في نورفولك، وقد قبلت ضيافته لمدة شهر من الإجازة الطويلة.

كان من الواضح أن تريفور الأب على درجة من الثراء والمكانة الاجتماعية حيث كان قاضياً للصلح وصاحب أملاك في دونيثورب، وهي قرية صغيرة إلى الشمال من لانغمير بلد البحيرات. أما المنزل فقد كان مبنياً من الحجر على الطراز القديم، مترامي الأطراف تحيط به أشجار البلوط ويقودنا إليه طريق ممهّد بأحجار الكلس الصغيرة. كان صيد البط البري في المستنقعات ممتازاً وأيضاً صيد السمك كان جيداً بشكل ملحوظ، كما كان لديهم مكتبة صغيرة ولكنها منتقاة بعناية، وقد أخذوها -كما

فهمت- من صاحب المنزل السابق. وفوق ذلك كله كان الطباخ محتمَلاً فكان من الطبيعي أن تقضى هناك شهراً لطيفاً إلا إذا كنت رجلاً صعب الإرضاء.

كان تريفور الأب أرملاً وصديقي هو ابنه الوحيد، وإن كنت قد سمعت بأنه كانت لديه ابنة ماتت بمرض الدفتيريا حينما كانت في زيارة إلى برمنغهام. وقد أثار الأب اهتمامي لدرجة كبيرة؛ فقد كان رجلاً ضحل الثقافة، وإن كان يتمتع بقوة طبيعية من الناحية الجسدية والعقلية فهو لا يكاد يعرف أيّ كتاب، ولكنه سافر بعيداً ورأى الكثير من هذا العالَم وهو يتذكر كل ما تعلمه. أما عن شكله فهو ضخم مربوع القامة وشعره كث أشيب، أمّا وجهه فأسمر خشن وعيناه زرقاوان قاسيتان إلى حد الشراسة. وبالرغم من ذلك فهو يشتهر في الريف باللطف والإحسان، وقد عُرف عنه التساهل في أحكامه في قاعة المحكمة.

وفي مساء أحد الأيام بعد وصولي بقليل وفيما كنا نشرب الشاي بعد العشاء أخذ تريفور الابن يتحدث عن ملاحظاتي واستدلالاتي التي كنت قد كوّنت لها نظاماً في ذلك الوقت (بالرغم من أنني لم أكن أعرف -بعد- الدور الذي ستلعبه في

حياتي). وكان من الواضح أن العجوز يظن أن ابنه يبالغ في وصفه لواحد أو اثنين من أعمالي البطولية المتواضعة، فقد قال وهو يضحك: حسناً يا سيد هولمز. أنا أمثّل موضوعاً جيداً إذا كنتَ تستطيع استنتاج أي شيء عني.

أجبته قائلاً: أخشى أنه لا يوجد الكثير، وإن كنت أعتقد أنك أمضيت الشهور الاثني عشر الماضية في خوف من أن تتعرض إلى اعتداء أو هجوم.

تلاشت الضحكة عن شفتيه وحملق إليّ في دهشة شديدة ثم قال: إن هذا صحيح تماماً.

ثم قال وهو يلتفت ناحية ابنه: أتعرف -يا فكتور- أنه عندما شتّتنا عصابة السرقة تلك أقسموا أن يقوموا بالقضاء علينا؟ وقد هوجم السير إدوارد هولي بالفعل فالتزمتُ أنا الحذر منذ ذلك الوقت... وإن كنت لا أعرف كيف توصّلتَ إلى ذلك يا سيد هولمز.

أجبته قائلاً: أنت تملك عصا جيدة جداً، وقد لاحظت من النقش أنك لم تحصل عليها إلا منذ عام أو أقل من ذلك، ولكنك تكلفت عناء نزع الرأس وصببت الرصاص في داخل التجويف لتجعل منها

سلاحاً فعّالاً. وقد تخيلتُ أنك لن تتّخذ مثل هذه الاحتياطات إلا لو كنت تخشى بعض المخاطر.

سأل مبتسماً: أثمّة شيء آخر؟

- لقد مارست الملاكمة في شبابك كثيراً.

- صحيح مرة أخرى. ولكن كيف عرفت؟ هل رأيت في أنفي اعوجاجاً؟

- لا، بل هما أذناك؛ فهما تتميزان بخصائص أذن الملاكم في السماكة والفلطحة.

- وماذا بعد؟

- لقد أمضيت وقتاً طويلاً في الحفر كما يظهر من تصلب جلد يديك.

- جاءت كل أموالي من حقول الذهب.

- وذهبتَ إلى نيوزيلندا.

- أصبت ثانية.

- وقمت بزيارة اليابان.

- إنك على حق تماماً.

- وقد ارتبطتَ من قريب بشخص الحروف

الأولى من اسمه هي «ج أ»، ثم أردت نسيانه تماماً بعد ذلك.

وقف السيد تريفور ببطء وهو يثبت عينيه الزرقاوين الواسعتين عليّ في حملقة غريبة هائجة، وبعد ذلك مال إلى الأمام ووقع مغشياً عليه فوق الطاولة!

وبالطبع -يا واطسون- تستطيع أن تتخيل كم صُدمنا بذلك، أنا وابنه، وإن كانت النوبة لم تستغرق وقتاً طويلاً على أية حال حيث إنه عندما قمنا بفتح ياقته ورششنا على وجهه بعض الماء شهق مرة أو مرتين ثم استوى جالساً.

قال وهو يتكلف ابتسامة: آه أيها الأولاد، أرجو أن لا أكون قد أخفتكم. فبالرغم من أنني أبدو قوياً إلا أن قلبي ضعيف بعض الشيء والقليل من الانفعال يصيبني بالإغماء. لا أعرف كيف تمكنت من ذلك يا سيد هولمز، ولكن يبدو لي أنك تتفوق على كل المخبرين الحقيقيين منهم والخياليين! إن هذا هو طريقك في الحياة يا سيدي، ولتعتبرها نصيحة من رجل عنده خبرة كبيرة بالحياة.

وقد كانت هذه النصيحة ومعها المقدمة التي

بالغ فيها في تقديره لقدراتي -إذا كنت ستصدقني يا واطسون- أول ما جعلني أشعر بأن ما كان حتى ذلك الوقت مجرد هواية يمكن أن يتحول إلى مهنة. على أية حال فقد كنت في تلك اللحظة مهتماً بالمرض المفاجئ لمضيفي حتى إنني لم أستطع التفكير بأي شيء آخر، فقلت له: أرجو أن لا أكون قد قلت شيئاً يسبب لك الألم؟

تحدث بطريقة شبه مازحة، وإن كان الرعب ما زال يكمن في عمق عينيه، وقال: حسناً، لقد لمستَ وتراً حسّاساً بالتأكيد. هل يمكنني أن أسألك كيف عرفت كل ذلك؟ وما هو القدر الذي تعرفه؟

قلت: إن الأمر في منتهى البساطة؛ فعندما كشفتَ ذراعك لتسحب تلك السمكة رأيت وشماً لحرفَي الجيم والألِف في ثنية مرفقك، وكان الحرفان ما يزالان واضحين بالرغم من أنه من الواضح -من الشكل المشوه لهما ومن تغيّر لون الجلد حولهما- أن جهوداً قد بُذلت لمحوهما، ولذا فقد كان من الواضح أنهما كانا حرفين مهمين جداً بالنسبة لك وإن كنت قد حاولت نسيانهما بعد ذلك.

صاح وهو يتنهد براحة وقال: يا لعينك الثاقبة!

إن الأمر كما تقول تماماً، ولكننا لن نتكلم عن هذا الأمر ولا عن الأشباح... فأشباح المحبين السابقين هي الأسوأ على الإطلاق. والآن فلنذهب إلى غرفة البليياردو لندخن السيغار بهدوء.

* * *

منذ ذلك اليوم، وبالرغم من كل مودته، كان هناك دائماً بعض الشك في تصرفات السيد تريفور نحوي، حتى إن ابنه علّق على ذلك قائلا: "لقد أخفت الحاكم لدرجة أنه لن يكون متأكداً أبداً بعد الآن ممّا تعرفه أو لا تعرفه". وهو لم يكن ينوي إظهار ذلك، أنا متأكد، ولكن الأمر تمكّن من تفكيره لدرجة أنه ظهر في كل تصرفاته، وأخيراً اقتنعت بأنني أسبّب له عدم الراحة فأنهيت زيارتي. ولكن في نفس اليوم الذي كنت سأغادر فيه وقعت حادثة ظهرت أهميتها بعد ذلك.

كنا -ثلاثتنا- جالسين على كراسيّ الحديقة نتعم بالشمس ونبدي إعجابنا بمنظر البحيرات عندما جاءت الخادمة لتقول إن بالباب رجلاً يريد رؤية السيد تريفور.

سألها مضيفي: ما اسمه؟

- لم يذكر اسمه.

- ماذا يريد إذن؟

- يقول إنك تعرفه وإنه يرغب في محادثتك لدقيقة فقط.

- أدخليه إلى هنا إذن.

وبعد ذلك بوقت قصير دخل رجل ضئيل كبير السن له طريقة تصرف متملقة ومشية ذليلة، وكان يرتدي سترة مفتوحة ملطّخة على كمها ببقعة من



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

القطران وقميصاً أحمر وأسود وبنطالاً من قماش قطني خشن وحذاء طويل الرقبة ثقيلاً بالياً. أما وجهه فكان نحيلاً أسمر اللون خبيثاً مع ابتسامة دائمة تُظهِر خطاً من الأسنان الصفراء غير المنتظمة، وكانت يده المجعّدة مغلقة بطريقة مُميّزة للبحّارة. وحين تقدم باتجاهنا بطريقة متراخية سمعت السيد تريفور يصدر صوتاً مثل الفُواق من حلقه، ثم قفز واقفاً وذهب إلى المنزل مسرعاً، وإن كان قد عاد بعد لحظة، وحينها شممتُ رائحة الشراب القوية حين مرّ بي.

قال: حسناً أيها الرجل، ما الذي يمكنني عمله لك؟

وقف البحّار ينظر إليه بعينين مزمومتين وبنفس الابتسامة المستمرة على وجهه.

سأل: ألا تعرفني؟

قال السيد تريفور بنبرة دهشة: يا للعجب، يا إلهي! أنت هدسون بالتأكيد.

قال البحّار: صحيح يا سيدي... يا للعجب! لقد مضى أكثر من ثلاثين عاماً منذ آخر مرة رأيتك فيها، وها أنت هنا في منزلك وأنا ما زلت أشقى لآكل اللحم المقدَّد.

قال السيد تريفور وهو يمشي ناحية البحّار: هراء، ستجد أنني لم أنسَ الأيام الخوالي.

ثم قال شيئاً بصوت منخفض، وأردف بعد ذلك بصوت عالٍ قائلاً: اذهب إلى المطبخ وستجد الطعام والشراب، وأنا على ثقة من أنني سأجد لك عملاً.

قال البحّار وهو يلمس مقدمة رأسه: شكراً يا سيدي. لقد أنهيت للتوّ عامين من العمل على متن سفينة شحن حيث كان هناك نقص في العمال، ولذلك فأنا أرغب في الراحة، وقد فكرت في أنه يمكنني الحصول عليها عندك أو عند السيد بيدوس.

صاح تريفور: آه، وهل تعرف أين هو السيد بيدوس؟

قال الرجل بابتسامة شريرة: فليباركك الله يا سيدي. أنا أعرف مكان كل أصدقائي.

وبعد ذلك مشى متراخياً خلف الخادمة ذاهباً إلى المطبخ.

وقد تمتم السيد تريفور لنا شيئاً عن كونه كان

رفيق سفينة للرجل عندما كان ذاهباً للبحث عن الذهب. وبعد ذلك تركنا وذهب داخلاً، وعندما دخلنا إلى المنزل بعد ذلك بساعة وجدناه ممدَّداً على الأريكة في غرفة الطعام وهو ثمل تماماً. وقد تركت هذه الحادثة كلها انطباعاً سيئاً عندي، ولم أكن آسفاً حين غادرت دونيثورب في اليوم التالي حيث شعرت أن وجودي لا بد وأنه كان مصدر إحراج لصديقي.

* * *

حدث كل ذلك في الشهر الأول من إجازتنا الطويلة، وقد ذهبت بعدها إلى غرفتي في لندن حيث قضيت الأسابيع السبعة التالية في المعمل منهمكاً في تجارب الكيمياء العضوية.

وفي أحد الأيام، حين كان الخريف في أواخره والإجازة توشك على الانتهاء، تلقيت برقية من صديقي يتوسل إليّ فيها أن أرجع إلى دونيثورب ويقول إنه في حاجة شديدة إلى نصحي ومساعدتي. وبالطبع فقد تركت كل شيء وتوجهت إلى الشمال مرة أخرى، وقابلني صديقي في المحطة بعربة تجرها الكلاب، ورأيت بلمحة خاطفة أن الشهرين

الماضيين كانا في غاية الصعوبة عليه؛ فقد أصبح نحيلاً مهموماً وفقَدَ شخصيته المرحة الصاخبة التي كانت تُميِّزه.

كانت كلماته الأولى هي: إن الحاكم يموت.

صحت: مستحيل! ماذا حدث؟

- سكتة دماغية أو صدمة عصبية... لقد كانت حالته حرجة للغاية طوال اليوم وأشكّ في أننا سنجده حياً.

سألته وقد روّعتني هذه الأخبار غير المتوقَّعة: ماذا كان السبب؟

- آه، هذا هو بيت القصيد. ادخل وسوف نناقش الأمر بينما نحن في الطريق. هل تذكر ذلك الرجل الذي جاء في المساء قبل أن تغادرنا؟

- أذكره تماماً.

- هل تعرف مَن الذي سمحنا بدخوله البيتَ في ذلك اليوم؟

- ليست لديّ أية فكرة.

- لقد كان الشيطان يا هولمز!

حملقت إليه بذهول.

- نعم، لقد كان الشيطان بعينه؛ فلم نحظَ بساعة هادئة منذ ذلك الوقت... ولا ساعة واحدة. فالحاكم لم يرفع رأسه قطّ منذ ذلك المساء، والآن سُحبت منه الحياة وتحطم قلبه... كل ذلك بسبب هذا الملعون هدسون.

- وما هو مصدر قوّته؟

- آه، هذا ما أنا مستعد لدفع الكثير حتى أعرفه. كيف يسقط الحاكم المحسن اللطيف العزيز في براثن مثل هذا الشخص الغوغائي؟! لكني سعيد جداً بمجيئك يا هولمز، فأنا أثق في حكمك وتقديرك وأعرف أنك ستنصحني بما هو أفضل.

كنا نمضي مسرعين على الطرق الريفية الجيرية الناعمة والبحيراتُ الممتدّة أمامنا تلمع بالضوء الأحمر لغروب الشمس، وكنت أستطيع رؤية المداخن العالية وسارية العلم المميزة لمنزل المالك عبر البستان المَوجود على يسارنا.

قال رفيقي: لقد جعل أبي الرجلَ بستانياً، وكأنه لم يرضَ بذلك فمنحه ترقية ليصبح رئيساً للخدم،

وبدا وكأن المنزل قد صار تحت رحمته ليتجوّل فيه ويفعل ما يريد، حتى إن الخادمات كنّ يشتكين من لغته البذيئة مما اضطر أبي إلى رفع رواتبهنّ جميعاً لتعويضهنّ عن إزعاجه الدائم. وكان هذا الرجل يأخذ قارب أبي وأفضل مسدساته ويذهب في رحلات صيد صغيرة، كل ذلك وعلى وجهه علامات الخبث والسخرية والوقاحة، مما يجعلني أفكر أن أوسعه ضرباً أكثر من عشرين مرة لو كان في مثل عمري. لقد اضطررتُ إلى السيطرة على نفسي بشدة كل هذا الوقت يا هولمز، والآن أسأل نفسي إذا كان ما فعلته هو التصرف الصحيح.

حسناً، لقد ازدادت الأمور تردّياً وأصبح هذا الحيوان هدسون أكثر تطفلاً حتى إنه قام مؤخراً ذات يوم، بينما كنت موجوداً، بالردّ على أبي بطريقة وقحة، وعندها أمسكت بكتفيه وأخرجته من الغرفة فانسلّ هارباً بوجه شاحب وعينين حقودتين تنذران بتهديدات أكثر مما يستطيع لسانه. ولا أعرف ما الذي حدث بينه وبين أبي المسكين بعد ذلك، ولكن أبي جاء إليّ في اليوم التالي وطلب منى الاعتذار إلى هدسون فرفضت.

ثم سألت والدي كيف يسمح لمثل هذا الحقير

بأن يتصرف بحرية معه ومع كل من في المنزل فقال: آه يا بني، من الجيد أن نتحدث. أنت لا تعرف موقفي ولكنك سوف تعرف يا فكتور... سأحرص على أن تعرف وليحدث ما هو مقدَّر. ولكنك لن تصدق أي شيء سيّئ عن أبيك العجوز المسكين، أليس كذلك؟

وكان متأثراً جداً فحبس نفسه في المكتبة طوال اليوم، حيث كنت أستطيع رؤيته من النافذة وهو مشغول بالكتابة. وفي ذلك المساء حدث ما بدا لي وكأنه خلاص كبير، حيث أخبرَنا هدسون بأنه سوف يغادرنا. فقد دخل إلى غرفة الطعام بعد العشاء وأعلن عن نيته بصوت أجش لرجل نصف سكران. قال: لقد مللتُ من نورفولك وسأذهب إلى السيد بيدوس في هامبشاير، وسوف يسرّ كثيراً لرؤيتي كما حدث معك يا سيدي.

فردّ عليه أبي بتذلل جعل الدم يغلي في عروقي، قال: أرجو أن لا ترحل إطلاقاً يا هدسون.

فقال بامتعاض وهو ينظر ناحيتي: لكنني لم أحصل على اعتذار.

قال أبي وهو ينظر إليّ: اعترف يا فكتور بأنك

قد عاملتَ هذا الرجل الفاضل معاملة خشنة.

أجبته: بالعكس؛ أنا أظن أننا صبرنا عليه بشكل غير عادي.

زمجر قائلاً: آه، أنت تظن ذلك؟ حسن جداً يا صاحبي، سنرى بشأن ذلك.

ثم خرج من الغرفة متراخياً، وبعد ذلك بنصف ساعة غادر المنزل تاركاً أبي في اضطراب يُرثى له. وليلة بعد أخرى كنت أسمعه يجوب غرفتَه قلقاً،



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

وحين بدأ يستردّ اطمئنانه وقعت النكبة أخيراً.

سألت بلهفة: وكيف كان ذلك؟

- بأكثر الطرق غرابة؛ حيث وصل إلى أبي مساء أمس خطاب يحمل طابع بريد من فوردينغ بريدْج، وحين قرأه أبي أمسك رأسَه بكلتا يديه وراح يجري في الغرفة في دوائر صغيرة كرجل فقَدَ رشده، وحين جررته إلى الأريكة أخيراً كان فمه وجفناه في حالة تشنّج في ناحية واحدة، وأدركت أنه قد أصيب بجلطة دماغية. وجاء الدكتور فوردهام على الفور ووضعناه في السرير، ولكن الشلل انتشر ولم تظهر أي إشارة على استعادته الوعي... ولا أظن إلا أننا سنجده الآن ميتاً.

صحتُ قائلاً: إنك تخيفني يا تريفور! ماذا يمكن أن يكون في تلك الرسالة ليسبّب مثل هذه النتيجة المرعبة؟

- لا شيء، وهذا هو الجزء الذي يصعب تفسيره؛ فالرسالة غريبة وتافهة... آه، يا إلهي! هذا ما كنت أخشاه.

وبينما كان يتكلم كنا ندور لندخل الطريق المؤدي إلى المنزل، ورأينا في الضوء الخافت أن

كل ستائر المنزل مُسدَلة. وحين أسرعنا إلى الداخل والحزن يكسو وجهَ صديقي خرج من البيت رجل يرتدي السواد، فسأله تريفور: متى حدث ذلك يا دكتور؟

- تقريباً بعد ذهابك مباشرة.

- هل استعاد وعيه؟

- للحظة قبل أن يموت.

- هل ترك لي أية رسائل؟

- لقد قال فقط إن الأوراق في الدُّرْج الخلفي للخزانة اليابانية.

توجه صديقي مع الطبيب إلى حجرة الموت في حين بقيتُ أنا في المكتبة، فأخذت أقلب الأمر في عقلي مرة بعد أخرى وأنا أشعر بالكآبة كما لم أشعر بها في حياتي من قبل. فما هو ماضي تريفور؟ وما الذي يجعل ملاكماً ورحّالة وباحثاً عن الذهب يضع نفسه تحت رحمة هذا البحّار ذي الوجه اللاذع؟ ولماذا أغمي عليه عند الإشارة إلى الأحرف الأولية نصف المطموسة على ذراعه؟ وما هو السبب في موته رعباً حين تسلم خطاباً من فوردنغهام؟

وعندها تذكرت أن فوردنغهام تقع في هامبشاير وأن السيد بيدوس، الذي ذهب البحار لزيارته وربما لابتزازه، يعيش أيضاً في هامبشاير؛ فإما أن يكون الخطاب -إذن- من هدسون البحّار يخبره فيه بأنه أفشى السر أو من بيدوس يحذّر فيه شريكه القديم من أن السر على وشك الافتضاح.

حتى الآن كان كل شيء واضحاً، ولكن كيف يصف ابنُه الخطابَ بأنه تافه وغريب؟ لا بد أنه لم يفهمه جيداً، ولو أن هذا هو ما حدث فلا بد أنه مكتوب بإحدى تلك الشفرات السرية البارعة التي يدل معناها على شيء في حين أنها تعني شيئاً آخر.

قلت في نفسي: يجب أن أرى هذا الخطاب، ولو كان هناك أي معنى خفي فيه فأنا على ثقة من أنني أستطيع اكتشافه.

وجلستُ لمدة ساعة أفكر بالأمر باكتئاب، وأخيراً حضرت الخادمة باكية تحمل مصباحاً وخلفها مباشرةً جاء صديقي. كان تريفور شاحب الوجه ولكنه كان متماسكاً، وكان يمسك بنفس هذه الأوراق التي أضعها الآن على ركبتيّ.

جلس قبالتي ثم سحب المصباح إلى حافة

الطاولة وأعطاني ملحوظة قصيرة مكتوبة بخط سيئ -كما ترى- على ورق رمادي: «عملية توريد طيور اللعبة إلى مدينة لندن انتهت. نعتقد أن الحارس هدسون تلقى الأوامر وأنه كشف طلبات الورق وكشف كل طلبات الطيور وأي شيء. لتحافظ على الطيور اهرب بها فهذا طريق للنجاة».

أستطيع أن أقول لك إن الحيرة قد بدت على وجهي مثلما تبدو الآن على وجهك حين قرأت الرسالة للمرة الأولى. وقد أعدت قراءتها بإمعان شديد ولكنها كانت مشفَّرة كما توقعت، ولا



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

بد أن معنى خفياً يكمن في تلك التركيبة الغريبة من الكلمات أو ربما كانت هناك دلالات متفَق عليها مسبقاً لبعض العبارات مثل «توريد الطيور» و«طلبات الورق»، وفي هذه الحالة الأخيرة يكون معناها اعتباطياً ولا يمكن تخمينه بأيّة طريقة.

لقد كرهت أن أصدق أن الأمر كذلك، وبدا أن وجود كلمة «هدسون» يشير إلى أن موضوع الرسالة كان كما خمّنت وأنها لا بد أن تكون من بيدوس وليس من البحّار. وحاولت قراءتها بالعكس ولكن التركيبة لم تكن مشجّعة، ثم حاولت تبديل الكلمات ولكن دون جدوى.

وفجأة صار مفتاح اللغز في يدي؛ فقد وجدت أننا لو أخذنا كل رابع كلمة من الرسالة فسوف نحصل على عبارة ربما تقود تريفور الأب إلى اليأس. لقد كان التحذير قصيراً وقاسياً عندما قرأته آنذاك لرفيقي: «اللعبة انتهت. هدسون كشف كل شيء. اهرب للنجاة»!

دفن فكتور تريفور وجهَه في كفيه المرتعشتين وقال: لا بد أن يكون ذلك صحيحاً... إن هذا أسوء من الموت حيث يعني العار أيضاً... ولكن ما معنى

عملية توريد الطيور وما إلى ذلك؟

- لا علاقة لها بالرسالة فيما يبدو. يمكنك أن ترى أنه بدأ بكتابة: اللعبة... انتهت... إلخ، وبعد ذلك ولإتمام الشفرة المتفَق عليها مسبَقاً قام بوضع أيّ ثلاث كلمات في كل فراغ. ومن الطبيعي أن يستخدم أول كلمات تخطر على باله، فإذا كانت في الرسالة كلمات تشير إلى الطيور والصيد فيمكن أن نضع احتمالاً بأنه من هواة الصيد أو أنه من المهتمين بتربية الطيور. هل تعرف أي شيء عن هذا المدعو بيدوس؟

قال: يا للعجب! لقد تذكرت الآن أن أبي المسكين قد اعتاد أن يتلقى منه دعوات للصيد في محميته كل خريف.

قلت: فالرسالة منه بلا شك إذن. يبقى الآن أن نعرف ما هو هذا السر الذي كان هدسون البحّار يهدد به هذين الرجلين الغنيين المحترمين.

صاح صديقي: أخشى أن يكون في الأمر خطيئة أو عارٌ يا هولمز. ولكني لن أخفي عنك أية أسرار؛ ها هو التصريح الذي كتبه أبي عندما عرف أن خطر هدسون بات وشيكاً، وقد وجدته

في الخزانة اليابانية كما خبّر أبي الطبيب. خذه واقرأه لي لأنني لا أملك الشجاعة لفعل ذلك.

وهذه -يا واطسون- هي الأوراق نفسها التي أعطاني إياها، ولسوف أقرؤها عليك كما قرأتها عليه في المكتبة في تلك الليلة. وكما ترى مكتوباً على الأوراق من الخارج فإنها تحتوي على بعض التفصيلات المتعلّقة برحلة السفينة «غلوريا سكوت» من وقت مُغادرتها ميناء فالموث في الثامن من تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٨٥٥ إلى وقت تدميرها في خط العرض ١٥ درجة شمالاً وخط الطول ٢٥ درجة غرباً، والأوراق في هيئة خطاب نصّه كما يلي:

ابني العزيز جداً،

الآن والعار يقترب مني ليدنس السنوات الأخيرة من حياتي أستطيع أن أعترف بكل الصدق والأمانة بما يلي: ليس ما يجرح قلبي هو الرهبة من القانون ولا هو الخشية من فقدان مركزي في المجتمع أو حتى خوفي من أن يحتقرني كل من أعرفهم، بل هو التفكير بأنك ستخجل مني... أنت من أحبّني ولم يكن عندك -كما أتمنى- من

الأسباب إلاّ ما يحملك على احترامي. ولكن إذا وقعت النكبة التي كنت مهدَّداً بوقوعها دائماً فأرجو منك أن تقرأ هذا لتعرف مني مباشرة مقدار ذنبي. أما إذا سارت الأمور على ما يرام واستجاب الله العظيم دعائي، ثم حدث لأي سبب أن هذه الأوراق لم يتم التخلص منها ووقعت بين يديك فإنني أناشدك -بذكرى أمك العزيزة وبالحب الذي كان بيننا- أن تحرقها ولا تفكر بها مرة أخرى أبداً.

أما إذا وقع نظرك على هذا السطر فلا بد أنني قد فُضحت وتم القبض عليّ أو أن من المرجَّح -نظراً لضعف قلبي كما تعرف- أن أكون قد مِتُّ وتوقفت عن الكلام إلى الأبد. في كلتا الحالتين يكون وقت الكتمان قد فات، وكل كلمة أقولها لك هي الحقيقة الكاملة وأقسم على ذلك، كما أتمنى الرحمة من الله.

إن اسمي -يا ولدي العزيز- ليس تريفور؛ فقد كان اسمي في سنوات شبابي هو جيمس آرميتاج، وسوف تتمكن الآن من فهم الصدمة التي أصابتني منذ عدة أسابيع

حين وجّه لي صديقك من الكلمات ما قد يشير إلى اكتشافه سري.

لقد عملت وأنا باسم آرميتاج في مؤسسة لندن المصرفية، ثم ارتكبت جرماً فحُكم عليّ بالنفي. لا تقسُ عليّ بالحكم يا صغيري، فقد كان دَيْنَ شرف، هكذا يُسمّى، وكان يجب عليّ دفعه، فاستخدمت أموالاً ليست لي لفعل ذلك وأنا على يقين من قدرتي على إعادتها قبل اكتشاف فقدانها. لكن سوء الحظ لازمني؛ فالمال الذي كنت أعتمد عليه لم يأتِ وكشف فحصٌ مبكّر للحسابات عن هذا العجز، وكان من الممكن التعامل مع القضية بتساهل أكثر لكن القوانين كانت تطبَّق بصرامة أشد منذ ثلاثين عاماً عمّا هي الآن، وهكذا وجدت نفسي في عيد ميلادي الثالث والعشرين مقيَّداً كمجرم مع سبعة وثلاثين من المحكومين في سفينة «غلوريا سكوت» المتجهة إلى أستراليا.

كان ذلك في عام ١٨٥٥ حين كانت حرب القرم في ذروتها، واستُخدمت سفن نقل المجرمين القديمة بكثرة في النقل بالبحر الأسود مما أرغم الحكومة على استخدام

سفن أصغر وأقل صلاحية لنقل سجنائها. وكانت سفينة «غلوريا سكوت» تُستخدَم في تجارة الشاي الصيني ولكنها كانت قديمة الطراز وذات مقدّمة ثقيلة، كما أنها كانت سفينة عريضة حلّت محلها السفن الشراعية الحديثة. كانت حمولتها خمسمئة طن، وإلى جانب السجناء الثمانية والثلاثين كانت تحمل ستة وعشرين من أفراد الطاقم وثمانية عشر ضابطاً وقبطاناً وثلاثة مساعدين، بالإضافة إلى طبيب وقسيس وأربعة حراس؛ أي أنها تحمل ما يقارب مئة شخص، وكانوا موجودين جميعاً حين أقلعنا من فالموث كما ذكرت.

كانت الحواجز بين حجرات المذنبين رقيقة وضعيفة جداً بدلاً من أن تكون من خشب البلوط كما هو الحال في سفن نقل المجرمين العادية. وكان الرجل الذي يقف خلفي تماماً من الذين لاحظتهم بوجه خاص عندما اقتادونا على رصيف الميناء، وهو شاب له وجه رائق حليق مع أنف طويل نحيل وفكين شديدي القوة. وكان يمشي في خُيلاء رافعاً رأسه بزهو، ثم إنه كان متميزاً بطوله غير العادي، فلا أظن أن أيّاً من رؤوسنا كان

ليصل إلى كتفيه، وأنا على ثقة من أن طوله لم يكن ليقلّ بأي حال عن ستة أقدام ونصف. وكان من الغريب رؤية مثل ذلك الوجه المليء بالقوة والعزم وسط كل تلك الوجوه الواجمة المتعبة، وكان ذلك بالنسبة لي كمصدر الدفء في عاصفة ثلجية؛ ولذلك فقد كنت سعيداً حين اكتشفت أنه كان جاراً لي، وكنت أكثر سعادة عندما سمعت همسة قريبة من أذني في عمق الليل وعرفت أنه قد تمكّن من شق فتحة في اللوح الخشبي الفاصل بيننا.

قال: أهلاً يا زميل، ما هو اسمك؟ ولماذا أنت هنا؟

أجبته ثم سألته من يكون، فقال: أنا جاك برندرجاست، ولسوف تتعلم أن تقدّس اسمي قبل أن تنتهي من حديثك معي.

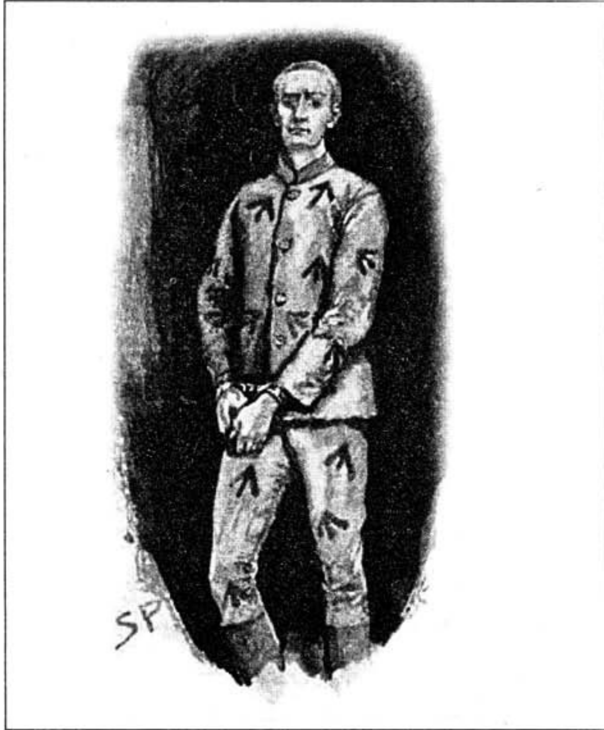
وتذكرت أنني سمعت عن قضيته لأنها كانت قضية أثارت هياجاً هائلاً في كل أنحاء البلاد قبل أن يُقبَض عليّ ببعض الوقت. لقد كان رجلاً ينحدر من عائلة ممتازة ولديه الكثير من القدرات العظيمة، لكنه كان ذا طبع شرير وذا براعة غريبة في الاحتيال على تجّار

لندن الكبار واستلاب مبالغ ضخمة منهم.

قال بفخر: هاها! أراك قد تذكرت قضيتي؟

- تذكرتها جيداً بالفعل.

- ألا تتذكر شيئاً غريباً كان فيها؟



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

- ما هو ذلك؟

- لقد حصلتُ على ربع مليون جنيه، أليس كذلك؟

- هذا ما يقولونه.

- ولم يستردوا منه أي شيء؟

- نعم.

سأل: إذن أين سيكون المال باعتقادك؟

قلت: ليس لدى أيّ فكرة.

صاح قائلاً: إنه بين أصابعي! إن عندي من الأموال أكثر من شعر رأسك، وعندما تملك المال -يا بني- وتعرف كيف تتعامل به وتوزعه تستطيع فعل أي شيء. حسناً، لا يمكن أن تعتقد أن شخصاً قادراً على فعل أي شيء سيجلس حتى تبلى ملابسه في هذا الحبس ذي الرائحة الكريهة الناشئة من بقايا الفئران والخنافس والذي يشبه الكفن القديم. كلا، مثل هذا الشخص لا بد وأن يعتني بنفسه وبزملائه، ويمكنك أن تعتمد على ذلك وتتمسك بهذا الشخص وأن تثق بأنه سيسحبك خارجاً من هذا المكان.

لقد كان هذا أسلوبه في الكلام. وفي البداية ظننتُ أنه لا يعني شيئاً، ولكن بعد فترة وعندما اختبرني وجعلني أقسم بكل ما هو مقدس فهمت منه أن هناك حقاً مؤامرة للسيطرة على السفينة، وأن دستة من السجناء قد رتبوها قبل أن يصعدوا على متنها، وأن برندرجاست هو القائد وأن أمواله هي الدافع المحرك.

قال: معي شريك جيد ونادر الوجود، وهو يملك الأموال. هل تستطيع أن تخمّن أين هو في هذه اللحظة؟ إنه قسيس هذه السفينة! القسيس، وليس أقل من ذلك. لقد صعد على متن السفينة بالمعطف الأسود وكل أوراقه صحيحة ومعه ما يكفي من الأموال ليشتري هذه السفينة بكل ما فيها. إن أفراد طاقم السفينة كلهم معه قلباً وقالباً؛ فقد اشترى إخلاصهم... اشتراهم بالجملة! ومعه أيضاً اثنان من الحراس والمساعد الثاني، ويمكنه الحصول على القبطان نفسه إذا اعتقد أنه ذو فائدة.

سألت: وماذا سنفعل إذن؟

قال: ماذا تعتقد؟ سنلطخ معاطف بعض

هؤلاء الجنود بالدم.

قلت: ولكنهم مسلحون.

- ونحن أيضاً سنكون كذلك يا بني. لدينا مسدسان لكل فرد منا، وإذا لم نستطع الاستيلاء على هذه السفينة وطاقمُها إلى جانبنا فقد حان الوقت لنذهب إلى مدرسة للبنات! تكلم الليلة إلى جارك من الناحية اليسرى وانظر إن كان يمكننا الوثوق به.

فعلت ذلك فوجدت أن جاري الآخر شاب في نفس موقفي تقريباً وتهمته هي التزوير، وكان اسمه إيفانز (لكنه غيّره بعد ذلك، وهو الآن رجل غني وناجح في جنوب إنكلترا)، وكان مستعداً بما فيه الكفاية لينضم إلى تلك المؤامرة باعتبارها الوسيلة الوحيدة لإنقاذ أنفسنا.

وهكذا وقبل أن نعبر الخليج كان هناك اثنان فقط من السجناء لا يعرفان السر، كان أحدهما ضعيف العقل فلم نجرؤ على ائتمانه عليه والآخر كان يعاني من اليرقان ولم يكن ذا فائدة تُذكَر.

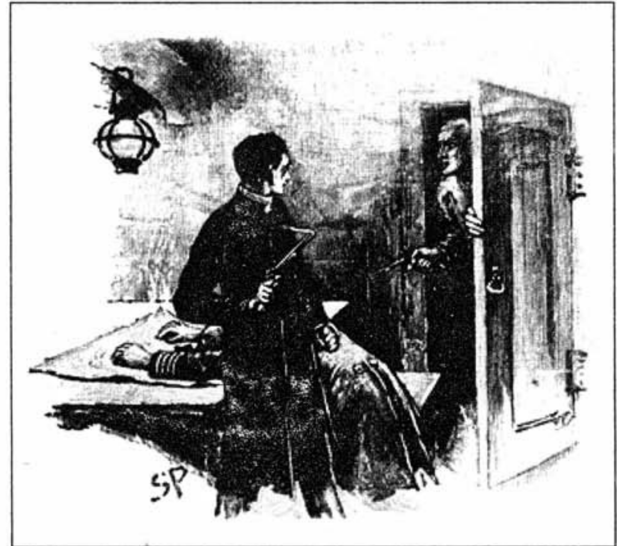
ولم يكن هناك ما يمنعنا من الاستيلاء على

السفينة منذ البداية، فالطاقم كان مجموعة من الأشرار تم اختيارهم لهذا العمل على وجه الخصوص. وقد كان القسيس الزائف يأتي لزيارتنا يومياً بحجة نصحنا وهو يحمل معه حقيبة سوداء من المفترض أن فيها كتيبات دينية، وكان يكثر من المجيء حتى إنه في اليوم الثالث كان كل واحد منا قد رتب تحت سريره مبرداً وزوجاً من المسدسات ورطلاً من البارود وعشرين طلقة، وبالإضافة إلى ذلك كان اثنان من الحرّاس يعملان كوكيلين لبرندرجاست وكان المساعد الثاني هو ذراعه اليمنى، ولم يبقَ ضدّنا سوى القبطان واثنين من المساعدين وحارسَين والملازم مارتن وجنوده الثمانية عشر والطبيب. وبالرغم من قوة مركزنا قررنا أن لا نهمل أي احتياط وأن نقوم بالهجوم فجأة في أثناء الليل.

لكن الأمر حدث بأسرع مما كنا نتوقع على أية حال، وكانت الطريقة التي تمّ بها كما يلي: ذات مساء بعد انطلاقنا بنحو ثلاثة أسابيع جاء الطبيب ليرى واحداً من السجناء كان مريضاً، وحين وضع يده على السرير شعر بهياكل المسدسات. ولو أنه

صمت فربما أفشَل كل شيء، ولكنه كان شاباً عصبياً فصاح بدهشة وشحب وجهه، فعرف السجين ما حدث فقبض على الطبيب وكمّمه قبل أن يتمكن من تحذير الباقين، ثم ربطه إلى السرير وفتح الباب المؤدي إلى سطح السفينة فاندفعنا منه جميعاً بسرعة.

وتم إطلاق النار على الحارسَين وأيضاً على العريف الذي جاء ليستطلع الأمر، وبعدها أسرعنا إلى حجرة القبطان فإذا بنا نسمع



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

صوت انفجار من الداخل فيما نحن نفتح الباب. وحينما فُتح الباب وجدناه مطروحاً على الأرض وقد وقف القسيس وبيده مسدس يخرج منه الدخان. وفي ذلك الوقت قام أفراد الطاقم بتقييد المساعدين، وبدا وكأن الأمر قد استقرّ. وتجمّعنا في الغرفة الواسعة بجوار غرفة القبطان حيث أخذنا نتقلب على الأرائِك ونتكلم كلنا في وقت واحد ونحن نشعر بالانفعال الشديد لأننا أصبحنا أحراراً مرة ثانية.

وكانت هناك خزائن على الجدران فقام ويلسون، القسيس المزيف، بكسر إحداها وأخرج منها زجاجات من الشراب فصببنا منها في الأقداح. وبينما نحن نتجرع الشراب سمعنا فجأة ودون أية مقدّمات قرقعة البنادق في آذاننا، وامتلأ المكان بالدخان فلم نستطع رؤية ما هو أبعد من الطاولة. وعندما وضحت الرؤية ثانية رأينا مجزرة حقيقية؛ فقد كان ويلسون وثمانية آخرون يتلوون الواحد فوق الآخر على الأرض وقد اختلطت دماؤهم بالشراب الأحمر على تلك الطاولة في منظر فظيع ما زال يصيبني بالغثيان حتى الآن كلما فكرت به! وقد رُوِّعنا جميعاً

من هذا المنظر حتى لأظن أننا كنا سنتخلى عن الأمر كله لولا وجود برندرجاست الذي هدر كالثور واندفع ناحية الباب بكل القوة الباقية فيه، فجرينا خارجاً وراءه حيث وجدنا الملازم وعشرة من جنوده عند مؤخرة السفينة.

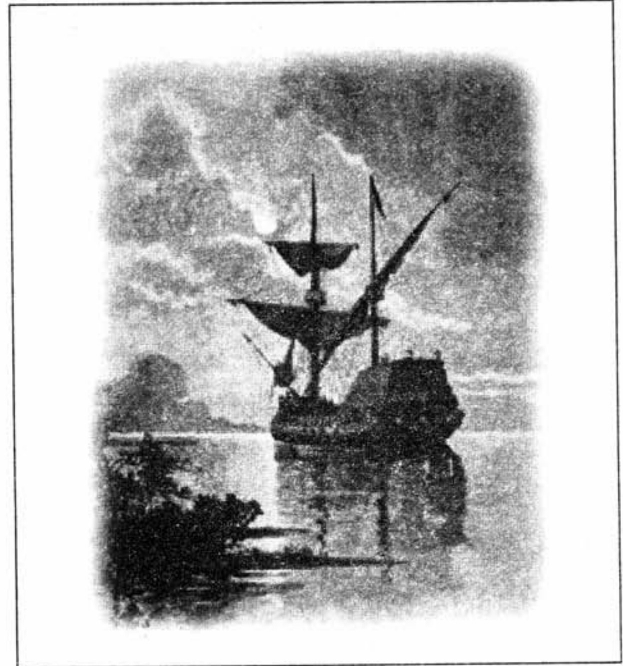
كانت النوافذ فوق طاولة غرفتنا مفتوحة قليلاً فقاموا بإطلاق النار علينا من تلك الشقوق، وقد هجمنا عليهم قبل أن يستطيعوا إعادة ملء بنادقهم بالبارود فواجهونا بشجاعة، لكننا تفوقنا عليهم وانتهى الأمر خلال خمس دقائق. يا إلهي، لقد كانت مجزرة! فقد كان برندرجاست كشيطان هائج يرفع الجنود كما لو كانوا أطفالاً ويرمي بهم من فوق السفينة سواء أكانوا أحياء أم أمواتاً. وكان هناك رقيب مصاب إصابة بليغة وبالرغم من ذلك ظل يسبح لمدة طويلة تثير الدهشة حتى أطلق أحدهم النار على رأسه من باب الرحمة. وحين توقف القتال لم يبقَ من أعدائنا على قيد الحياة سوى الحراس والمساعدين والطبيب.

وقد نشأ نزاع حولهم؛ إذ كان كثير منا

فرحين باستعادتنا حريتنا مرة أخرى لكنهم لم يرغبوا بالقتل، فقد كان قتل الجنود وبنادقُهم في أيديهم شيئاً والقتل بدم بارد شيئاً آخر. وقال ثمانية منا إنهم لن يوافقوا على ذلك، لكنْ كان من غير الممكن التصدي لبرندرجاست ومَن معه، فقد قال إن فرصتنا الوحيدة في النجاة هي في القيام بعمل نظيف وقال إنه لن يترك أحداً بمقدوره الجلوس في كرسي الشهود. وكدنا -نحن المعارضين- نصل إلى نفس مصير الأسرى، ولكنه قال في النهاية إن بوسعنا المغادرة في أحد القوارب، فرحّبنا بالعرض حيث كنا قد أصابنا الغثيان من تلك الوحشية وذلك التعطش إلى الدماء ورأينا أن الأمر سيسوء قبل أن ينتهي. فأعطونا ملابس بحارة لكل واحد وقارورة مياه وبرميلين، واحداً فيه أشياء عديمة الفائدة والآخر فيه كعك، وأعطونا بوصلة ورمى لنا برندرجاست خريطة وأخبرنا أن نتصرف كبحّارة لسفينة تحطمت وغرقت في خط عرض ١٥ درجة شمالاً وخط طول ٢٥ درجة غرباً، ثم قطع حبل القارب وتركنا نذهب.

وصلنا الآن إلى الجزء الأكثر إثارة للدهشة

في قصتي يا بني العزيز، فقد كان البحّارة قد سحبوا عارضة الشراع الأمامية إلى الخلف في أثناء التمرد، وحين تركناهم قاموا بنشرها ثانيةً وبدأت السفينة تبتعد عنا بسبب وجود بعض الريح الخفيفة من الشمال والشرق. وأخذ قاربنا يتهاوى ارتفاعاً وانخفاضاً على صفحة الأمواج الممتدة الناعمة، وجلست أنا وإيفان (حيث كنا الأكثر تعلّماً



في المجموعة) ندرس الخريطة لنعرف موقعنا ونخطط إلى أي الشواطئ يجب أن نصل. وقد كان سؤالاً جيداً حيث كان ساحل رأس فيردز على بعد خمسمئة ميل شمالاً والساحل الإفريقي على بعد سبعمئة ميل شرقاً. وإجمالاً وبما أن الرياح تأتي من الشمال فقد اعتقدنا أن سيراليون قد تكون أحسن اختيار وأدرنا رؤوسنا في ذلك الاتجاه.

كانت السفينة في ذلك الوقت مجرد شبح على ميمنتنا، وفجأة وفيما نحن ننظر إليها رأينا سحابة كبيرة من الدخان الأسود يتصاعد منها فيظهر كشجرة ضخمة على خط التقاء السماء بالأرض، وبعد ذلك بثوان معدودة سمعنا انفجاراً يهدر كالرعد في آذاننا. وحينما بدأ الدخان يتلاشى لم يكن هناك أثر باق للسفينة غلوريا سكوت، فأدرنا القارب فوراً وجدّفنا بكل قوتنا إلى المكان الذي ما زال الدخان الخفيف يتصاعد عنده فوق الماء ليشير إلى مكان الكارثة.

مرت ساعة طويلة قبل أن نصل إلى المكان، وفي البداية خفنا أن نكون قد وصلنا

متأخرين عن إنقاذ أي شخص، وكان وجود قارب محطم وعدد من صناديق الشحن وشظايا الصواري تهبط وترتفع مع الأمواج يُظهر لنا مكان غرق السفينة، ولكن لم يكن هناك أثر للحياة. وكنا قد استدرنا مبتعدين في يأس حين سمعنا صرخة استغاثة، ورأينا من بعد قطعة من الحطام ورجلاً ممدداً عليها، وعندما سحبناه إلى القارب تبين أنه بحار شاب اسمه هدسون، وكان يعاني من



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

حروق شديدة وإرهاق عظيم فلم يستطع أن يخبرنا ما حدث حتى الصباح التالي.

علمنا أنه بعد مغادرتنا تابع برندرجاست وعصابته قتل السجناء الخمسة الباقين حيث تم إطلاق النار على الحارسين ورُميا عن ظهر السفينة، وكذلك المساعد الثالث والطبيب. وبقي المساعد الأول الذي كان رجلاً جريئاً، فما إن رأى المجرمين يقتربون منه حتى ألقى بقيوده التي كان قد تمكن من فكها بطريقة ما وأسرع إلى سطح السفينة فاقتحم المخزن الخلفي، وحين نزل إلى هناك اثنا عشر رجلاً من المتمردين حاملين مسدساتهم بحثاً عنه وجدوه يحمل في يده علبة ثقاب ويجلس بجوار برميل مفتوح من البارود، وقد كان ذلك البرميل واحداً من مئة أخرى على السفينة، وأخذ يقسم بأنه سيفجّر كل شيء لو ضايقوه بأية طريقة. وبعد لحظة حدث الانفجار، بالرغم من أن هدسون يعتقد أن سبب ذلك كان رصاصة طائشة من أحد المتمردين وليس بسبب كبريت مساعد القبطان. ليكن السبب ما يكون، فقد كانت تلك هي نهاية سفينة غلوريا سكوت والمتمردين الذين استولوا عليها.

هذا -يا بني العزيز- هو تفصيل ذلك العمل المريع الذي كنت متورطاً فيه. وفي اليوم التالي انتشلتنا سفينة كانت متجهة إلى أستراليا، ولم يجد القبطان صعوبة في تصديق أننا الناجون من سفينة ركاب غرقت، أما سفينة النقل غلوريا سكوت فقد تم اعتبارها مفقودة في البحر ولم يتسرب أي خبر عن حقيقة مصيرها. وبعد رحلة مريحة أنزلتنا السفينة في سيدني حيث غيّرت اسمي وكذلك فعل إيفان وبدأنا طريقنا في التنقيب عن الذهب، ولم نجد صعوبة في التخلص من هويتنا القديمة وسط الحشود المجتمعة من كل البلاد.

والباقي لا أحتاج إلى سرده، فقد نجحنا في أعمالنا ثم عدنا كأننا من سكان المستعمَرات الأغنياء إلى إنكلترا واشترينا بيوتاً ومزارع في الريف، ولمدة تزيد على العشرين عاماً عشنا حياة هادئة آمنة وتمنينا أن يكون الماضي قد دُفن إلى الأبد. ولك أن تتخيل شعوري حين عرفت الرجل الذي جاءنا وأدركت أنه البحّار الذي أنقذناه من الحطام، فقد تبعنا بطريقة ما وقرر أن يعيش معتمداً على خوفنا. ولسوف تفهم الآن كيف تقت إلى

البقاء على وفاق معه، ولعلك تتعاطف معي إلى حد ما حين أقول إن الخوف يملأ قلبي الآن وقد تركني وذهب إلى ضحيته التالية وهو يهدد ويتوعد.

وتحت ذلك كتب بيد مهزوزة جداً لدرجة أنها تكاد تكون غير مقروءة: كتب إليّ بيدوس بالشفرة ليخبرني بأن «هـ» قد فضح كل شيء. فليرحم الله أرواحنا.

❊ ❊ ❊

كانت تلك هي الحكاية التي قرأتها في تلك الليلة على صديقي تريفور. وقد وقع صديقي فريسة للحزن الشديد، ثم سافر إلى سيلان للعمل في مزارع الشاي حيث سمعت أنه نجح وجمع ثروة كبيرة. أما فيما يتعلق بالبحّار وبيدوس فلم يسمع أحدٌ عنهما بعد ذلك اليوم الذي كُتب فيه خطاب التحذير، فقد اختفى كلاهما تماماً. واتجهت شكوك الشرطة إلى أن البحّار قد تخلص من بيدوس ثم لاذ بالفرار، أما أنا فأظن أن العكس هو ما حصل؛ فالاحتمال الأكبر أن يكون بيدوس -وهو يشعر باليأس بعدما تمت خيانته- قد انتقم لنفسه من هدسون وهرب من البلاد بما استطاع الوصول إليه من الأموال.

هذه هي الحقائق المتعلقة بهذه القضية يا صديقي، ولو كانت ذات فائدة لمجموعتك فهي تحت أمرك بكل رحابة صدر.

* * *

-تمت-

صدر من هذه المجموعة

مغامرات شيرلوك هولمز

(١) فضيحة في بوهيميا

(٢) قضية هوية

(٣) عصبة ذوي الشَّعْر الأحمر

(٤) لغز وادي بوسكومب

(٥) بذور البرتقال الخمس

(٦) ذو الشّفة الملتوية

(٧) مغامرة الجوهرة الزرقاء

(٨) لغز العصابة الرقطاء

(٩) مغامرة إبهام المهندس

(١٠) مغامرة النبيل الأعزب

(١١) مغامرة تاج الزمرّد

(١٢) منزل الأشجار النحاسية

ذكريات شيرلوك هولمز

(١) ذو الغُرّة الفضية

(٢) لغز الطرد البريدي

(٣) لغز الوجه الأصفر

(٤) مغامرة موظف البورصة

(٥) سفينة «غلوريا سكوت»

(٦) وصية عائلة موسغريف

(٧) لغز بلدة ريغيت

(٨) مغامرة الرجل الأحدب

(٩) لغز المريض المقيم

(١٠) مغامرة المترجم اليوناني

(١١) وثائق المعاهدة البحرية

(١٢) المشكلة الأخيرة



The Adventures of Sherlock Holmes



مغامرات
شيرلوك هولمز
تأليف: آرثر كونان دويل



The Adventure of the 'Gloria Scott'



ISBN 2-1957-3365-7

